مكانة مصر فى المغرب العربى

للأستاذ محمد السعيد الزاهرى

يشاع اليوم فى الجزائر أن الآنسة أم كلثوم قد أزمعت أن تقوم بسياحة فى بلاد المغرب وأن حكومة مراكش قد رفضت أن تسمح لها بدخول المغرب الأقصى . قالوا ولذلك عدلت الآنسة عن زيارة المغربين الآخرين (الجزائر وتونس) وهذه هى المرة الرابعة التى نسمع فيها هذه الاشاعة تتردّد فى أرجاء المغرب العربى وتكون مشغلة الرأى العام فيه ويهتم لها الناس ويندفعون فى شرحها والتعليق عليها بمختلف الآراء والأقوال : فهذا يقول لقد أحسنت السلطات بذلك إلى أهل مراكش ووفرت عليهم أعراضهم وأموالهم بمنع المطربة المصرية من دخول هذه البلاد ، إذ لو أن هذه الآنسة زارت مراكش لملكت على أهليها قلوبهم وأهواءهم ، ولذهبت بعقولهم وألبابهم ، واستولت على أموالهم وعلى ما كسبت أيديهم ، ولكانت عليهم فى الآخر نكبة مالية كبرى لا تقل فى فداحتها وقسوتها عن هذه الضائقة العاتية التى أهلكت الزرع والضرع وأخذت بمخانق الدنيا كلها ؛ وذلك يقول لقد ضيّقت السلطة بذلك على المغاربة حريتهم الشخصية ومنعتهم مما تهوى إليه أفئدتهم وحالت بينهم وبين ما يشتهون ؛ وهنالك آخر يقول غير هذا

ومهما اختلف الناس فى تفسير هذه الاشاعة وفى تأويلها فانها تدل على شىء واحد وهو أن هذه الآنسة قد غزت بصوتها الملائكى القلوب قلوب هؤلاء الناس ، وأن منزلتها فى بلاد المغرب العربى لا تقل عنها فى مصر ، وأن المغاربة يتذوقون فنها وغناءها كما يتذوقهما المصريون

قالت مجلة «السلام» الغراء التى كانت تصدر فى مدينة تطوان فى بعض أعدادها إن المغاربة مولعون بالموسيقى المصرية وبالناجين المصرى إلى حد الهيام ، حتى أن العواتق فى خدورهن ليهتفن بأم كلثوم ويترنمن بألحانها وأغانيها . ولقد رأينا بعض المراكشيين المشهورين بالتديّن والصلاح قد طرب وانشرح ونسى أنه من أهل الورع والتقوى ، ولم يزل به الطرب والانشراح حتى خرج عن رزانته ووقاره إلى حالة من العبث والطيش تشبه أن تكون جنوناً ، وذلك حين سمع فى « الفونوغراف » صوتاً للأستاذ محمد عبد الوهاب . ولا تجد فى المغرب الأقصى داراً فيها « فنوغراف » إلا وتجد كل اسطواناتها أو جلها مصرية لأم كلثوم وعبد الوهاب وسامى الشوا ومن إلى هؤلاء . وتباع الاسطوانات المصرية هنا بثمن مرتفع قد يفوق ثمنها الأصلى أضعافاً مضاعفة . ولقد مرت علينا أيام رأينا فيها أسطوانات أم كلثوم وعبد الوهاب تباع الواحدة منها بثلاثة جنيهات انكليزية قبل هبوط الاسترليني

والواقع أن الألحان والأغانى المغربية التى كانت إلى عهد قريب منتشرة شائعة فى المغرب العربى قد اختفت اليوم من الميدان ، وتخلت عن مكانتها من الذوق المغربى العام لألحان مصر وأغانيها ، ولا نستثنى هذا التراث الذى بقى بأيدينا من فن الأندلس وغنائها فقد تزحزح هو الآخر عن مكانه للغناء المصرى وترك له المجال واسعاً فسيحاً

ولما اعلنت الحكومة المصرية أنها ستفتح فى القاهرة محطة للاذاعة اللاسلكية تهالك الناس فى الجزائر وتونس ومراكش على أجهزة المذياع (الراديو) يشترونها ويقتنونها رجاء أن يستمتعوا بسماع ما تذيعه مصر من الأغانى والمحاضرات ، ولكنهم عادوا فجعلوا يبيعون أجهزتهم ببعض قيمتها عند ما تبيّن لهم أن المحطة المصرية لم تكن محطة عالمية يمكنهم سماعها

كل هذا دليل على أن الذوق العام فى بلاد المغرب العربى هو نفس الذوق العام فى مصر ليس بينهما شديد خلاف . ولعل تونس ومراكش هما أرق من هذه الناحية ، فالحياة فيهما مترفة ناعمة تؤثر الطرب والسماع ، وتميل إلى اللهو والاستمتاع ، بخلاف الجزائر فانها عريقة فى البداوة ، مطبقة الجهل والأمية ، لا تزال تغلب على حياة العشائر الأولى ، تشعر القبيلة فيها بأنها قبيلة وكفى ، وقلما تشعر بأنها شعبة من الجزائر فضلا عن أن تشعر بأنها من الأمة المغربية أو الأمة العربية الكبرى . ولعل مدينة وهران قد ضربت الرقم القياسى فى البداوة والأمية وفى البُعد عن العالم العربى دون أنحاء الجزائر كلها ، ومع ذلك فكل مقهى من مقاهيها ، وكل بيت عربى فيها ، فيه « فونوغراف » لا يخلو من الاسطوانات المصرية وإننا لنسمع فيها الأنغام الساذجة البسيطة التى تحاكى رسم

النجائب وخَبَبَ الجياد إلى جانب الفن والابداع فى أنغام أمّ كلثوم وعبد الوهاب

ولما عرض فيها للمرة الأولى الشريط المصرى « أنشودة الفؤاد » أقبل عليه هذا الجمهور العربى فى وهران إقبالاً منقطع النظير طيلة ثلاثة أسابيع ، وبعد بضعة أشهر عُرِضَ المرة الثانية واستمر عرضه ثلاثة أسابيع أخرى فكان الناس إلى الحفلة الأخيرة يتدافعون إليه بحماسة وشوق لا نظير لهما حتى أن منهم من شاهده عشر مرات !

وعند ما أزمعت فرقة مصرية للتمثيل الهزلى أن تقوم برحلة فى بلاد المغرب قالت عنها جريدة مصرية مُحترمة إنها ستبوء بالفشل الذريع ، وستقنع من الغنيمة بالاياب ، أو أنها على الأقل ستكابد فى مهمتها ألوانا من المشقة والعناء ما لم تترجم مسرحياتها من اللغة المصرية إلى اللغات المغربية . وقامت هذه الفرقة برحلتها ونجحت فى مهمتها نجاحا باهرا لم يكن يخطر لها على بال ، وتذوّق المغاربة رواياتها وفكاهاتها وأدركوا مغزى « النكتة » المصرية من ملهياتها من غير أن تضطر إلى ترجمة كلمة مصرية واحدة إلى اللغات المغربية ؛ وبعبارة أخرى إن هذه الفرقة وجدت نفسها فى بيئة عربية مغربية لا تختلف عن مصر إلاّ كما تختلف الهيئة المصرية نفسها باختلاف المديريات والأقاليم ، ووجدت أن كل ما يقال من وجود لغة مصرية ولغات مغربية هو من الأوهام الباطلة التى لا أصل لها ، وإنما يوجد لسان عربى واحد تتكلمه الشعوب العربية (مصر وأخواتها) بلهجات تختلف اختلافا لا يحول دون التفاهم بين الناطقين بالضاد ، ولا توجد فى الدنيا لغة إلا ولها لهجات تختلف فيما بينها اختلافا كثيرا أو قليلا

وكثير من الغربيين من يعتقدون أن الشعوب العربية تتكلم اليوم لغات مختلفة متباعدة فيما بينها ، وبعيدة كل البعد عن العربية الفصحى التى أصبحت فى نظرهم لغة موتا . كما أن الشعوب اللاتينية تتكلم اليوم لغات متباعدة فيما بينها جدا حتى لا يمكن للفرنسى أن يفهم الاسبانية أو الايطالية دون أن يتعلمها ، وهذه اللغات هى الآن بعيدة عن اللغة اللاتينية التى هى أصلها

وفى هذه الأيام نشرت صحيفة فرنسية تصدر بالجزائر مقالا عن الحج إلى بيت الله الحرام عنوانه : « اللغة الفرنسية فى مؤتمر مكة » زعم فيه كاتبه أن حجاج الجزائر ومراكش وتونس وطرابلس ومصر وسوريا ولبنان وفلسطين والعراق سيتفاهمون فى « مؤتمر مكة » لهذا العام باللغة الفرنسية ، لأن لكل فئة من هؤلاء الحجاج لغة قومية لا يفهمها الآخرون ، ولأن الفرنسية منتشرة بين جميع الطبقات فى هذه الأقطار . وأبى أن يرجع إلى الصواب إلا بعد أن رأى بعينيه وسمع بأذنيه بحارة مصريين يتحادثون مع بعض العملة الجزائريين والمراكشيين من غير أن يكون بينهم ترجمان !

وكان عالم فرنسى من علماء المشرقيات جاء بلاد المغرب مندوباً من وزارة المعارف الفرنسية لدرس اللهجات العامية المغربية ، فلبث فى هذه البلاد يبحث ويدرس ويستقرئ ، ثم رفع إلى الوزارة تقريرا بالنتائج التى انتهى إليها فى دراسته وأبحاثه ، ونشر هذا التقرير واطلعنا عليه فاذا هو مملوء بالأغاليط والأضاحيك ، فقد زعم فيه أن عربياً تونسياً تزوج فتاة عربية من بجاية (الجزائر) فلم يستطع الزوجان أن يتفاهما — لتباعد لغتيهما القوميتين — إلا بالفرنسية التى لم تكن تلم بها الزوجة إلا إلماماً قليلا . والحق أن هذا التقرير هو دعوة صريحة إلى إيجاد فروق بين اللهجات المغربية وإلى تجسيم ما يكون منها موجودا بالفعل

وحدثنى ذات يوم فنان فرنسى قال : « كنت أعتقد أنه لا بد أن يأتى يوم على المغاربة يصيرون فيه فرنسيساً خُلّصاً من حيث تذوق الفن والشعور بالجمال ، غير أنى رجعت الآن عن اعتقادى هذا ، فقد مضى على فرنسا فى الجزائر مائة وبضع سنين لم تستطع أثناءها أن تجعل العرب الجزائريين يقبلون على الأفلام الفرنسية ، أو يطربون لسماع عازف فرنسى مهما كان محسناً بارعاً ، أو يتذوقون غناء فرنسياً مهما كان منسجماً ساحرا يستهوى القلوب ويأسر الألباب ، على حين نرى المغاربة جميعاً يقبلون الاقبال الذى لا نظير له على الأفلام المصرية وتستهويهم مصر بأنغامها وأغانيها ، ويعجبون الاعجاب كله بالفنانين المصريين » . ثم قال : « ولقد راعنى اقبال هؤلاء الناس على شريط الوردة البيضاء وتهالكهم على مشاهدته ، فشاهدته أنا أيضاً ، ولكننى لم أجد فى هذا الشريط ما يعجبنى ، على أن جميع من فى المسرح كانوا

يشاهدون عبد الوهاب وكأنما هو ملك كريم قد هبط اليهم من السماء ، وينصتون لصوته وكأنما هو نغم إلهي ينزل عليهم من الملأ الأعلى »

وما من شيء له أثر في حياة المغرب العقلية أو الاجتماعية إلا وهو مصري غالباً ، فمثلا كتاب « مختصر خليل » في الفقه الاسلامي على مذهب الامام مالك بن أنس هو كتاب مصري قد جعل أفئدة من الناس في المغرب تهوى إلى مصر ، له منزلة سامية في قلوب المغاربة يخصونه بكثير من التقديس والاحترام ، ومنهم من يتعبدون بتلاوته كما يتعبدون بتلاوة القرآن الكريم ؛ ولم يعد خافياً أمر ذلك الفقيه المرحوم الذي كان يصلي « النافلة » بهذا الكتاب ويقوم به الليل عابدا متهجدا ؛ ولا أذيع سرا حين أقول إن هذا « المختصر » لا يزال له إلى الآن في كلية القرويين بفاس « حزّابة » كما للقرآن « حزابة » ، وهم يتقاضون أجورا أوفر وأسنى مما يتقضاه « حزابة » القرآن العظيم ؛ ولتلاوته هذه الراتبة أوقاف كما لتلاوة القرآن أوقاف . وفي بلاد المغرب طبقة من المحافظين يقولون عن أنفسهم إنهم « خليليون » ، وأهل المغرب جميعاً هم ما لكية ماعدا وادي ميزاب بالجنوب الجزائري وجربة بالقطر التونسي ، فان أكثر أهلهما أباضية ، ولكنهم قليلون جدا فعددهم لا يتجاوز الخمسين ألفا ، بينما تَعُدّ الجزائر وتونس ومراكش من الأنفس خمسة عشر مليوناً يجلون هذا الكتاب ويرفعونه إلى أعلى مقام ، حتى النساء في خدورهن لا يفصل الخصومات التي تثور بينهن إلا الحلف بهذا الكتاب !

ولا يزال المغاربة ينظرون بعين الاعتبار إلى كل من طلب العلم بالأزهر الشريف ، ولو أنه كان قليل التحصيل ، ويعترفون بالفضل لكل من أقام في مصر أو رآها

وفي بلاد المغرب طرق صوفية منتشرة بين سائر الطبقات لها أكبر الأثر في العقائد والأخلاق ، وأكثر هذه الطرق مستمد من الشيخ البكري المصري ، فأتباع هذه الطرق ومريدوها يحبون البكري ويرون لهم فيه « الشيخ المد » فيرفعونه فوق كل الاعتبارات

وما أنت بواجد ولا مغربياً واحدا إلا وهو يحفظ كثيرا أو قليلا من شعر ابن الفارض الصوفي المصري المشهور

وكل حركة دينية أو أدبية في مصر لها صداها القوي في هذا المغرب العربي ، فللأستاذ المرحوم الشيخ محمد عبده المصري أنصار ومريدون . وفكرة الاصلاح الاسلامي التي كان يدعو اليها أصبحت اليوم في الجزائر مذهباً اجتماعياً تعتنقه الكثرة الكثيفة من الناس وتقوده « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » . وكل أديب كبير في مصر له أنصار وأشياع في بلاد المغرب ، فللأديب الامام الأستاذ مصطفى صادق الرافعي أنصار ومعجبون وهو أكثر الأدباء المصريين تلامذةً وقراءً في هذه البلاد . وللمرحوم قاسم أمين أنصار يدعون المغربيات إلى السفور وترك الحجاب ، غير أن دعوتهم لم تجد ملبّياً ولا مجيبا فأخفقت إخفاقا شديدا . وللزعماء المصريين منازلهم من قلوب الناس هنا . والمطبوعات المصرية تحتل المقام الأول عندنا ، سواء في ذلك الصحف والكتب والمجلات . والصحف المغربية لكثرة ما تروى عن مصر وما تنشر من أخبارها تكاد تكون طبعات مغربية لزميلاتها المصريات . على أن هذه الصحف المصرية الكبرى لا تهتم لبلاد المغرب إلا قليلا ، ولا تتكلم عنها إلا كما تتكلم عن مجهل من المجاهل التي لم تطأها قدم إنسان ، فمن خلط في أسماء المدن المشهورة بالمغرب وفي أسماء الأشخاص البارزين الى حوادث تحوكها عن المغرب وتخبط فيها خبط عشواء

ويقول الشبان المغاربة الذين يطلبون العلم في جامعات فرنسا انهم تعرفوا الى الطلبة السوريين فعرفوا فيهم العروبة والاعتزاز بها ووجدوا منهم إخوانهم وذوي قرباهم ، وتعرفوا الى الطلبة المصريين فعرفوا فيهم رقة الشمائل ودماثة الأخلاق وما شئت من لطف وأدب ، وأنكروا منهم هذه «الفرعونية» الجافية التي تجهلنا وإياهم كما قال شاعر العروبة الأستاذ ابراهيم طوقان :

أحب مصر ولكن مصر راغبة عني فتعرض من حين إلى حين

إن تاريخ هذه البلاد حافل بالشواهد والبينات على أن المغرب يرتبط بمصر منذ العصر الحجري بكثير من روابط النسب والحضارة والدين

وإن الذي هو ما بيننا وما بين مصر لمحض النسب
رباط العروبة يجمعنا ويجمعنا ديننا والحسب

ولكن هل يمكن أن يبعث من جديد ما كان بين المغرب ومصر من الروابط وصلات القربى ؟

وهران (الجزائر) محمد السعيد الزاهري